السّيرة النّبويّة من القرآن الكريم

الفترة المكّيّة

بقلم

الدّكتور حسن محمّد باجودة

أستاذ الدّراسات القرآنيّة البيانيّة

جامعة أمّ القرى بمكّة المكرّمة

وقفٌ على معهد الدراسات القرآنيّة للبنات

بمكّة المكرّمة

العنوان : ١٣ شارع الحضارة – الرّصيفة

خلف مسجد الأمير أحمد – مكّة المكرّمة

ص . ب ٩٥٠٩

المملكة العربيّة السّعوديّة

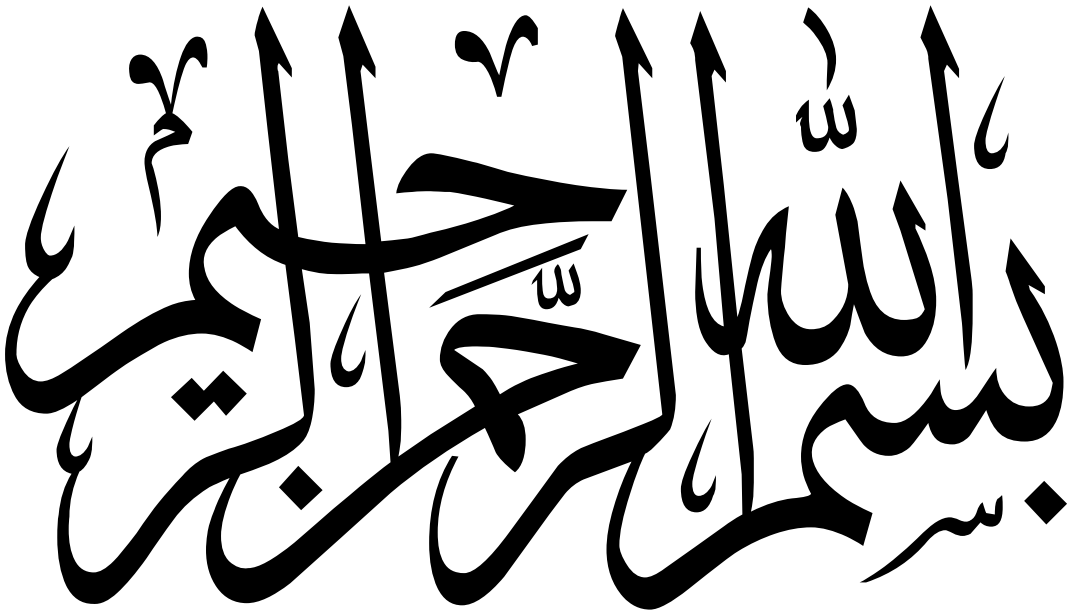
بسم الله الرحمن الرحيم

السيرة النبوية

تأليف الشيخ الأستاذ الدكتور حسن باجودة

تقديم الأستاذ الدكتور حسن الوراكلي

عضو رابطة علماء المغرب

ليس يتسع المجال، في حيز هذه الكلمة، للحديث عن ارتباط الشعر بالتاريخ وارتباط التاريخ بالشعر، ولكن ما لا يتم الواجب إلا به في هذه الكلمة هو أن الشعر ارتبط في تراثنا بفرع مهم من فروع التاريخ هو السيرة النبوية، تارة، بوصفه—أي الشعر— مكونا جماليا وتصورياً، بآن، في متنها النثري، وأخرى باعتباره وعاء جمالياً لصياغتها.

أما الأولى فتطالعك بها بواكير مصنفات السيرة التي توشحت صفحاتها بقصائد الصحابة الشعراء تصور غير واقعة من وقائع السيرة وتصف غير موقف من مواقف صاحبها الرسول الأكرم عليه أفضل الصلاة وأتم التسليم ومن معه من الصحب رضوان الله عليهم. وكلنا أو جلنا عرف قصائد حسان بن ثابت، وابن رواحة، وكعب بن مالك وغيرهم من سيرة ابن هشام. وقصائد هؤلاء الصحابة الشعراء وقصائد غيرهم ممن لم يكن لمقصد جمالي فحسب يتحقق به تطريز فقرها النثرية وتوشية صورها السردية، وإنما كان لغرض مضموني أو تصوري كذلك لما حوته هذه القصائد من مشاهد (وثقيّة) لوقائع السيرة ولما انطوت عليه من أوصاف حية لمواقف صاحبها عليه الصلاة والسلام ومن حوله من الصحب الكرام. وهذه المواقف وتلكم المشاهد ترجمة عملية لشرعة الإسلام وبلورة تطبيقية لمنهجه الأخلاقي والسلوكي.

وأما الثانية فهي المتمثلة في اتخاذ الشعر وسيلة تعبير وصياغة لمضمون السيرة. وإني هنا أذكر ما كان لعلماء الغرب الإسلامي ، قديماً من يد طولي في ذلك ،من أشهر آثارهم فيها القصيدة الشقراطسية لأبي محمد الشقراطسي (ت ٤٦٦هـ) وقصيدة (معراج المناقب ومنهاج الحسب الثاقب) لابن أبي الخصال (ت ٥٤٠هـ) وهي في ذكر نسب رسول ﷺ ومعجزاته ومناقب أصحابه، و (القرارة اليثربية المخصوصة بشرف الأحناء القدسية) لأبي

القاسم ابن البراق الوادي آشي (ت ٥٩٦هـ) والمعلم الرابع من كتاب(الدرة السنية في مقتضى المعالم السنية) لابن المناصف (ت٦٢٠هـ) ويكب حالياً على تحقيقها ودرسها بإشرافنا في أطروحته للدكتوراه بشعبة الدراسات الإسلامية في آداب تطوان طالبنا الأمثل الأستاذ عبدالقادر الشرقاوي و(العشرينيات النبوية) لأبي زيد الفزازي (ت ٦٢٧هـ) و(نظم الدرر ونثر الزهر) لأبي الوليد الأفيلح الإشبيلي (من أعلام القرنين السادس والسابع) و(الحلة السيرا في مدح خير الوري) لابن جابر الأندلسي(ت ٧٨٠هـ) والسيرة المنظومة التي كتبها أبو علي الأنصاري الجزائري وغيرهم . وكذلك أذكر مما كتبه أهل المشرق في السيرة الشعرية عمل الشاعر العباسي أبي العباس عبدالله بن محمد الناشي المعروف بابن شرشير (ت٢٩٣هـ) ومن أهل الحجاز (عقد الفرائد فيما نظم من الفوائد) لعلاء الدين محمد بن عبدالباقي البخاري المكي الذي أفرد بابا من أبواب كتابه هذا عن رسول الله ﷺ وأحاديثه ، وفي العصر الحديث هذا العمل الذي فاجأنا به الصديق الأكرم الأفضل العالم المفسر الشيخ الدكتور حسن محمّد باجودة.

لقد عرفت الدكتور باجودة ، خلال سنوات المجاورة الزكية السخية المباركة، لا يشغل أو لا يكاد يشغل بشيء عما نذر جهده ووقته وعلمه لخدمته : كتاب الله تعالى إقراءً وتدريساً وتفسيراً مما أثمر، ونعم ما أثمر، قطوفاً تسر العين وتبهج الخاطر ، وتملأ السمع والبصر والفؤاد (التأملات) في سور القرآن : الزهراوين من طوالها ويوسف والأحزاب من مئينها ، وسورة الفاتحة وسورة محمد وسورة النّازعات والعاديات من المفصل وأخريات من هذه وتلك . وإلى هذه (التأملات) تفسيره الموجز الذي استفرغ الوسع سنين عددا في تحريره ، والموجز من الكتابة أعسر من بسيطها قرب فيه معاني القرآن الكريم وبلور خطابه العقدي والشرعي والخلقي لمختلف الأفهام.

وكنت أعرف وأشهد بأن للدكتور حسن براعته في حوك نثار كالنضار يتلألأ به فن القول عنده إذا كتب أجاد وإذا حاضر أفاد وإذا سئل فأجاب أبدأ وأعاد حتى أخبرني أنه ، بعد فراغه من تبييض التفسير عكف على كتابه سيرة شعرية لرسول الهدى ونبي التقى معلمنا وقدوتنا سيدنا محمد ﷺ .

فانكشف لي حينئذ ما كان محجوباً عني في شخصية الدكتور حسن، وهو جانبه الشعري الإبداعي .

أكرمني الصديق العزيز العالم المفسر الشيخ الدكتور حسن محمد باجودة خلال أعوام مجاورتي ، غير مرة،وغير مرتين،وغير مرات،آخرها حين حمل إلي في مكتبي بمعهد البحوث العلمية بالجامعة نسخة من سيرته الشعرية حديثة عهد بمحبرة صاحبها ، وحين حمل معه إلى ندوتي الجمعية نسخة منها شنف بقراءة بعض نصوصها الآذان.

فما عساي أن أقول في تقديم عمل شرف بموضوعه ، وهو سيرة خير البرية ومعلم الإنسانية ،وكرم بقلم قبس من أجلي بيان واستمد من أبلغ لسان.

إني لعلي يقين من أن عملا من شاكلة هذا العمل في شرف موضوعه يصوغه قلم من شاكلة قلم صاحبه في فصاحته وبلاغته ليس بحاجة إلى تقديم .

كما أني على يقين من أن عرض محتوى هذا العمل في هذه الكلمة على أنظار القراء يحرمهم متعة التلقي دون وسيط ويسلبهم لذاذة التملي دون وسيط !

على أني مع هذا وذاك لم أستطع أن أكبح اندفاع القلم وجريانه بـ (مناقب) لسيرة الشيخ با جودة الشعرية أكتفي بالنص على أربعة منها قمينة بالمحمدة ، حقيقة بالمنة وهي :

أ – الاجتزاء من السيرة النبوية بمشاهد تدل على كاملها ؛ ذلك أن السيرة النبوية كلها –كما نعلم – منظومة قيم سامية ومثل هادية ؛ لذا فإن رصد وقائع وأحداث ومواقف منها ليس يعني تفضيل جوانب منها على أخرى ، ولكنه يعني إمكان التدليل بواحدة منها على أخرى لوحدة الدلالة النابعة من وحدة المنطلقات ووحدة الغايات في مجموع السيرة . من هنا جاء فعل الاختيار الواعي من مشاهد السيرة عند الشيخ باجودة في سيرته محققا لما ينشده مؤلفو السيرة الكلية من تصوير كافة عناصرها المضمونة من النسب الشريف إلى الوفاة ملتزمين في ذلك بالسياق التاريخي للوقائع والأحداث . فأنت تقرأ هذه السيرة فلا تحس –إن كنت ممن روى السيرة ووعى – بفجوات بين ما يعرض عليك من مشاهدها لما ينتظمها من وحدة سياق ووحدة خطاب. فمن (البعثة المحمدية) إلى (بدء الوحي) إلى (فترة الوحي) إلى (الدعوة سراً) إلى (الدعوة جهراً) إلى (المصطفى أرتقى

الصفا) وهكذا لا يزال باجودة يعرض عليك من مشاهد السيرة من معاناة وفتنة في (عام الحزن والهجرة إلى الطائف) إلى (الهجرة إلى الحبشة) حتى يقف بك عند صاحبها الأكرم (محمد اجل هادي) يجلي لك مكارمه في كل مجال ويكشف لك عن محامده في كل جانب ومن خلال هذا وذاك يعرض عليك مضمون رسالة الدعوة الخاتمة الهادي والباني.

ب – ومع انشغال الشيخ باجودة في بعض ما رصد من مشاهد السيرة بوصف الحوادث وتصوير الوقائع فإن مقصده لم يكن التّأريخ لها ولا كان مقصده فيما سجل من مواقف للرسول ﷺ ومن حوله روايتها وتوثيقها ؛ بل كان مقصده هنا وهناك دون الالتزام بالتسلسل التاريخي للسيرة، صياغة رسالة لقرائه تكشف لهم عن قيم الإسلام ومثله، وتكشف، بالآن ذاته، عن شخصية محمدﷺ في كمالها الخلقي والسلوكي بما يكرس به في نفوس قرائه صورة هذا الرسول الخاتم الذي بعثه ربه تعالى هدى ورحمة للعالمين .وهو بذات الوقت أيضاً يضمّن وصفه صبر المسلمين ومصابرتهم وجهادهم ومجاهدتهم في سبيل العقيدة التي آمنوا بها رسالة لأبناء الأمة ترسخ لديهم الشعور بضرورة التمسك بهويتهم العقدية والثقافية في مواجهة الهجمة الصليبية الشرسة على وطنهم وكيانهم الحضاري وضرورة النهوض ،كذلك، بتبليغ رسالة الاستواء للإنسانية التي تمشي على وجهها باعتبارها دعوة الخير للناس كافة كما صور ذلك الشيخ باجودة بقوله :

دعـــوة خـــير الخـــلق عالمـــيهْ مـــن فجرهـــا في الفـــترة المكيـــهْ
في ســورة الأعــراف شــئنا أو ســبأ أو ســـورة الفرقـــان يأتينـــا النبـــأ

وبكونها – باعتبار أن الإسلام هو الرابطة بين أبناء أمة الحق كافة –كما صور ذلك صاحب هذه السيرة وهو يتحدث عن شخصية النجاشي الذي آمن بالدعوة الجديدة حين هاجرت إلى وطنه، ونعاه رسول الله ﷺ حين بلغه نعيه :

نعى النبي النجاشي يوم أن لحقت روح النجاشي بأهل الدين والحسب
هنا الدليل بأن الدين آصرة أقوى من الجاه والأوطان والنشب
هنا الدليل بأن الدين يربطكم يا أمة الحق من عجم ومن عرب

ج . توسل الشيخ باجودة في سبك سيرته بجملة آليات تعبيرية ارتقت بمقاطع من متنها إلى مستوى فني بديع . ومن ذلك آلية التصوير على نحو ما نقرأ في قوله يصور مكانة الدين في صدر الدعوة :

هو الدين الذي يسعى حثيثاً ليبلغ وجهه البدر التماما
وهذا الدين يشمخ في الروابي ويرفع في دروب الحق هاما
ويتخذ القلوب له مقرا ويمنحها السعادة والوئاما

وفي قوله يصور الشخصية المسلمة ، ممثلة في شخصية جعفر بن أبي طالب ، التي اهتدت بعقيدة هذا الدين واستوت بشرعته واقتدت في خلقها وسلوكها بالمثال المقتدى والنموذج المحتذى رسول الهدى سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم :

وهذا جعفر يبدو دواءً لمن قد كان أعمى أو تعامى
إذا سأل النجاشي قال حقاً وليس يخاف في الحق الملاما
وإن طلب السّماع لبعض آي فهذا الدّمع ينهمر انسجاما
لقد أبدى لمن سألوه علما وبيّن ذا حلالا ذا حراما
وأدرك كل من خبروه حلما وأخلاقا تجسّدها تماما
ألیس المرء تلمیذا لطه نبيٌّ خير من صلّى وصاما
ألیس المرء فرع بیوت مجد بیوت المجد أنبتت الكراما
ألم یشبه حبیب الله خَلْقاً وأخلاقا وآباءً عظاما
أیا ذا الهجرتین فدتك روحي بمؤتة أنت من فلّقت هاما

جـــمعت الهجـــرتين بكـــل فخـــر وقُلِّـــــدت العصـــــائب والعمامـــــا
وكـــنت أخـــا لكـــل أخ كـــريم وكنـــــت أبا لمـــــن بلـــغ الفطامـــــا

ومن ذلك آلية الحوار التي استثمرها في عرض مشاهد حسّاسة من السيرة كما في هذه الأبيات التي ضمنها ما جرى من حوار بين رسول الله صلى الله عليه وسلم وبين قومه:

قـــال الهـــدى : لـــو أنـــني أخـــبرتكم أنيّ أرى خـــــيلا وقـــــد أنـــــذرتكم
أكـــون قـــد بـــررت أو عققـــتكم أكـــون قـــد كـــذبت أو صـــدقتكم ؟
قالـــوا لـــه : أنـــت هـــو الصـــدوق أنـــــت علينـــــا دائمـــــا شـــــفيق
قـــال : اسمـــعوا وعـــوا الـــذي أقـــول إني مـــــــن الله لكـــــم رســـــول
إني نـــــــذير لكـــــــم مبـــــين قبـــــل عـــــذاب لكـــــم يكـــــون

د . ورابعة (المناقب) ، وهي مسك الختام ، ما يطالعك في أبيات السيرة من تناصٍّ قرآني أسهم ، من ناحية ، في تجميل لغة السيرة ، ومن أخرى ، في بلورة خطابها العقدي والأخلاقي والسلوكي .

وخشياً من الوقوع في (مهمة الوسيط) بينكم وبين هذه السيرة البديعة أكتفي في التمثيل على ذلك بقوله :

لم ينطـــق المختـــار يومـــا عـــن هـــوى لكنـــــه وحـــــي إليـــــه قـــــد جـــــرى
الله أعلـــــم حيـــــث يجعـــــل وحيـــــه ويخـــص بالفضـــل العظـــيم الأخـــيرا
لم ينـــــزل الـــــرحمن آيات الهـــــدى مـــن أجـــل أن يشـــقى الحبيـــب فيســـهرا

وهو في البيت الأول يقبس من قوله تعالى في سورة النجم: ﴿ وما ينطق عن الهوى. إن هو إلا وحي يوحى ﴾وفي الثاني من قوله تعالى في سورة الأنعام :﴿ الله أعلم حيث يجعل رسالاته ﴾ وفي الثالث من قوله تعالى في سورة طه: ﴿ ما أنزلنا عليك القرآن لتشقى ﴾.

وبقوله :

فـإن يشـأ ربـك الأعلـى هدايتـه سيشـرح الصـدر منـه دونمـا دخـل

وإن يشـأ أن يضـل المـرء أنـت تـرى تحـوّل الصـدر ضـيقا مفحـص الحجـل

وهو ينظر في هذين البيتين إلى قوله تعالى في سورة الأنعام: ﴿ فمن يرد الله أن يهديه يشرح صدره للإسلام ومن يرد أن يضله يجعل صدره حرجا كأنما يصَّعّد في السماء﴾.

وبقوله :

في سـورة مـن محكـم التنزيـل قـد دافـع المـولى عـن الرسـول

تبّـتْ يـدا خصـم لـدود ذي لهـب لم يغـن عنـه مالـه أو ماكسـب

وهو يستمد من قوله تعالى في سورة المسد :﴿ تبت يدا أبي لهب وتب.ما أغنى عنه ماله وما كسب ﴾.

لقد بلورت سيرة الشيخ باجودة ، إلى ذلك ، استمرارية جاذبية الشعر لكتاب السيرة ، وكذلك استمرارية الوعي لديهم بأن تاريخ الإسلام ، وسيرة رسوله الأكرم ، وسير صحبه ، وسير علماء الأمة العاملين ، مادة جديرة بالاستلهام في مطولات شعرية تحمل رسالة الحق والخير والجمال إلى الإنسانية جمعاء.

ولست أجد ما أختتم به هذه الكلمة أفضل من شهادة بعض جلسائي في ندوة الجمعة ، وهم معدَّلون ، وفيهم الفقيه ، وفيهم المحدث، وفيهم المؤرخ ، وفيهم الأديب في سيرة الشيخ با جودة ، وهي شهادة تنويه وإعجاب بعلمه وأدبه ، أفصح عنها غير واحد من

هؤلاء الأماثل كالدكتور عياد الثبيتي ، والدكتور محمد أبو الأجفان ، والدكتور قاسم سعد ، والدكتور محمد آيت سعيد ، والشيخ مجد مكي .

وأخيرا ، وليس آخرا ، فقد كانت كتابة هذه السيرة أمنية طالما راودت الشيخ باجودة ، وسأل ربه تحقيقها بقوله :

وأســـأل ربي أن يبـــارك في العمـــر لأنظـم في المختـار عقـدا مـن الزهـر
فـإن غـذاء الـروح في سـور الـذكر وفي ســيرة المختــار تعبــق كالزهــر

وقد أجيب أخي الأكرم سؤله ، فليقر عينا يوم كتبها ، ويوم يذيعها في الناس ، ويوم أكرمني ، مشكورا مأجورا ، بصورة منها ، فكان لي مثله أن :

(رأيت بها ما يملأ العين قرة)[1]

وكتب أبو أيمن حسن الوراكلي

بالبلد الأمين مكة المكرمة

عشية الثلاثاء ٢٧ ربيع الثاني عام ١٤٢٥هـ

المقدمة

الحمد لله ربّ العالمين ، والصّلاة والسّلام على أشرف المرسلين ، سيدّنا محمّد ، وعلى آله وصحبه أجمعين ، وبعد :

---

[1] غطّى الأستاذ الفاضل في تقديمه سبعمائة وثمانيةً وأربعين بيتاً لثلاث عشرة قصيدة ، ومجموع أبيات الفترة المكّيّة من السّيرة النّبوّية ألفان وخمسمائة وأربعة عشر بيتاً في اثنتين وعشرين قصيدة.

فقد كنت قد كتبت رُباعيّةً بتاريخ ١٤٢٤/٦/٢٧هـ أي بعد زهاء أربعة أيّام من كتابة القصيدة الأولى في هذا السِّفر . وهذه هي الرُّباعيّة :

وأســـــــأل ربِّي أن يبـــــــارك في العُمْـــــــر
لِأَنْظِـــمَ في المختـــار عِقْـــداً مـــن الزُّهْـــر[1]
فـــإنّ غِـــذاء الـــرُّوح في سُـــوَرِ الـــذِّكْر
وفي سِيـــرة المـــختار تَعْـــبَقُ كالـــزَّهْر

وكأنّ الحقّ جلَّ وعلا قد استجاب هذه الدّعوة . لقد اتّجهت النّيّة بعد الانتهاء من كتابة التفسير البسيط للقرآن الكريم[2] لأن أكتب السّيرة النّبويّة من القرآن الكريم نَثْرا.

وشاء الله تعالى أن يكون هذا العمل ذا شقّين . الشّقّ الأوّل يتعلّق بالسّيرة النّبويّة من القرآن الكريم نَثْراً . والشّقّ الآخر نظم المعاني التي أَوْحَتْ بها الآيات الكريمات شعراً.

والحقيقة أنّ القصائد قد نُظِمَتْ أوّلا في ضوء فهم معاني الآيات الكريمات ، ثمّ كُتب التّفسير لاحقّا . إنّه بعد الانتهاء من نظم القصيدة يُعْمَل تفسيرٌ مُيَسَّرٌ للآيات الكريمات التي أَوْحَتْ بِنظم القصيدة ، ويُوضَع التّفسير بين يدي القصيدة أو القصائد .

شاء الله تعالى أن يشتمل هذا السَّفر على اثنتين وعشرين قصيدة ، عدد أبياتها ألفان وخمسمائة وأربعة عشر بيتاً . وقد غطّت هذه القصائد السّيرة النبويّة العطرة خلال الفترة المكّيّة حتّى الهجرة ووصول النّبيّ صلّى الله عليه وسلّم إلى المدينة المنوّرة .

والله سبحانه وتعالى أسأل أن يتقبّل هذا العمل وينفع به ويثيب عليه إنّه جوادٌ كريم .

﴿ سُبْحَانَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ * وَسَلَامٌ عَلَى الْمُرْسَلِينَ * وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ وصلّى الله وسلّم على سيّدنا محمّد وعلى آله وصحبه أجمعين والحمد لله ربّ العالمين .

---

(١) الزُّهر البِيض والمفرد زهراء .

(٢) في التّمهيد مزيد تفصيل .

مكّة المكرّمة

صبيحة يوم الاثنين ١٤٢٦/٢/٢٥هـ

الموافق ٤/٤/ ٢٠٠٥ م

كتبه الفقير إلى عفو ربّه

د . حسن محمّد باجودة

أستاذ الدّراسات القرآنيّة البيانيّة

جامعة أمّ القرى بمكّة المكرّمة

التّـمهيد

لقد أعان الله سبحانه وتعالى على إتمام كتابة التّفسير البسيط للقرآن الكريم ، الّذي عَمِلْتُهُ من أجل مسابقة الملك عبد العزيز الدَّوْلِيّة لحفظ القرآن الكريم وتلاوته وتفسيره ، والّذي تطبع منه جزءاً كلّ عام وزارة الشّئون الإسلاميّة والأوقاف والدّعوة والإرشاد.
وكان الانتهاء من كتابة التّفسير مساء آخر أيّام شهر ذي الحجّة عام ١٤٢٣هـ ولله الحمد والمنّة . وكانت بداية كتابة هذا التّفسير في نهاية شهر محرّم عام ١٤٠٣هـ .

شَرَحَ الله تعالى صدري لأن أكتب السّيرة النّبويّة من القرآن الكريم ، لأن مثل هذا العمل يصحّ أن يفكّر فيه من أتمّ تفسير القرآن الكريم ، ولأنّ القرآن الكريم أوّل مصادر السّيرة النّبويّة المطهّرة . لقد عكفت بضعة شهور أقرأ في هذا الموضوع قراءةً حُرَّة ، وكلّ الّذي دوّنته في أوراقي مجموعةٌ من الفوائد ورءوس الأقلام الّتي قد أحتاج مستقبلاً لمراجعتها أو الاهتداء بها .

شاء الله تعالى أن أقف مليّاً عند الحديث الّذي رواه الصّحابيّ الجليل واثلة بن الأسقع رضي الله تعالى عنه عن النّبيّ صلّى الله عليه وسلّم والّذي بيّن صلّى الله عليه وسلّم فيه أنّ الله تعالى اصطفاه من بني هاشم ، واصطفى بني هاشم من قريش إلى آخر الحديث . وبشأن هذا الصّحابيّ الجليل استهوتني حياته العظيمة وتضحياته وزهده في الدّنيا ، فقد كان من أصحاب الصُّفَّة . وقد أكرم الله تعالى الصّحابيّ الجليل كعب بن عُجْرة رضي الله تعالى عنه فحمله معه إلى غزوة تبوك . كان واثلة بن الأسقع أحد الّذين فاضت أعينهم من الدّمع حينما بيّن لهم النّبيّ صلّى الله عليه وسلّم أنّه لا يجد ما يحملهم عليه من الظَّهْر إلى تبوك . وفي مقابل حمل كعب بن عجرة واثلة تعهّد واثلة بأن يدفع لكعب كلَّ ما ينال من الغنيمة . تظاهر كعبٌ بِقَبول تعهّد واثلة ، كي يرفع عنه الحرج حينما يخصّ كعبٌ واثلة بأطيب الطّعام وبالقسط الأكبر من الرّاحلة والرّاحة .

شاء الله تعالى أن يكون كلٌّ من الصّحابيّين الجليلين في جيش خالد بن الوليد رضي الله تعالى عنه الّذي بعثه النّبيّ صلّى الله عليه وسلّم من تبوك إلى أكيدر دُومَة الجندل . غنم واثلة في هذا البعث سِتَّ نياقٍ أتى بها وفاءً بعهده إلى كعب بن عجرة الّذي خرج إليه من

مكانه وهو يبتسم ويقول : بارك الله لك ، ما حملتك وأنا أريد آخذ منك شيئاً[١]

لقد ضرب كلٌّ من الصّحابيّين الجليلين المثل الأعلى في الوفاء وسموّ الهمّة ابتغاء مرضاة الله تعالى .

لقد هزّتني هذه الأنواع من المروءات هزّاً عنيفاً ، ووجدتني راغباً في أن أبدأ الكتابة في السّيرة النّبويّة من القرآن الكريم منطلقاً من دروس تبوك ! وبَدَلاً من أن يكتب القلم السّيرة العطرة نثراً كتب شعراً ، فكانت هذه القصيدة . وهي أولى القصائد الّتي نظمتها في السّيرة النّبويّة من القرآن الكريم الفترة المكّيّة !

ونودّ أن نذكر بعض ما له علاقة بالمصطفى صلّى الله عليه وسلّم من فوائد بين يدي القصيدة الأولى .

وُلِد رسول الله صلّى الله عليه وسلّم يوم الاثنين ، لاثنتى عشرة ليلةً خَلَت من شهر ربيع الأوّل عام الفيل[٢] وقيل بل وُلِد في غير ذلك اليوم من ذلك الشّهر[٣] وقيل إنّه وُلِد في شهر رمضان ، وهو شاذّ [٤] .

ووالده صلّى الله عليه وسلّم عبد الله[٥] بن عبد المطّلب بن هاشم بن عبد مناف[٦] .

وأُمُّه صلّى الله عليه وسلّم آمنة بنت وهب بن عبد مناف بن زُهرة[٧] القرشيّة[٨] وكانت قريش اثنتي عشرة قبيلة منها بنو عبد مناف وبنو زُهْرة بن كِلاب[٩] .

---

(١) انظر هنا – مثلاً – أسد الغابة ٧٧/٥ ترجمة واثلة بن الأسقع الكنانيّ اللّيثيّ .

(٢) السّيرة النّبويّة لابن هشام ١٦١/١ دار المعرفة بيروت .

(٣) انظر الفصول في سيرة الرّسول صلّى الله عليه وسلّم لابن كثير ٩١ .

(٤) الفصول ٩١ .

(٥) السّيرة النّبويّة ٢٥/١ والفصول ٨٣ .

(٦) السّيرة النّبويّة ٢٥/١ والفصول ٨٣ وانظر تمام النّسب الشريف في السّيرة النّبويّة ٢٥/١–٢٧ والفصول ٨٣–٨٧ .

(٧) السيرة النّبويّة ١١٩/١ .

(٨) نور اليقين في سيرة سيّد المرسلين ٧ .

(٩) انظر – مثلاً – فتح الباري ٥٠٢/٨ ، ٥٠٣ ونور اليقين ٨٠ .

فرسول الله صلّى الله عليه وسلّم أشرف ولد آدم حَسَباً ، وأفضلهم نَسَباً مِنْ قِبَل أبيه وأمّه صلّى الله عليه وسلّم [١] .

مات عبد الله ، أبو رسول الله صلّى الله عليه وسلّم ، وأُمّ رسول الله صلّى الله عليه وسلّم حامِلٌ به [٢] .

ورُويَ أنّ النّبيّ صلّى الله عليه وسلّم قال : أنا دعوة أبي إبراهيم ، وبُشْرَى أخي عيسى ، ورأت أمّي ، حين حَمَلَتْ بي بأنّه خرج منها نورٌ أضاء لها قصور الشّام [٣] .

لقد جاءت دعوة إبراهيم عليه السّلام في الآية الكريمة التّاسعة والعشرين بعد المائة من سورة البقرة .

وجاءت بشارة عيسى عليه السّلام في الآية الكريمة السّادسة من سورة الصّفّ .

وبشأن النّور الّذي رأته آمنة يقول في تأويله السّهيلّي في الرّوض الأنف[٤] : "وَذُكِر النّور الّذي رأته آمنة حين ولدته عليه السّلام فأضاءت لها قصور الشّام ، وذلك بما فتح الله عليه من تلك البلاد ، حتّى كانت الخلافة فيها مدّة بني أُميّة ، واستضاءت تلك البلاد وغيرها بنوره صلّى الله عليه وسلّم " .

---

(١) السّيرة النّبويّة ١/١٢٠ .

(٢) السّيرة النّبويّة ١/١٦١ والفصول ٩٢ .

(٣) السّيرة النّبويّة ١/١٦١ .

(٤) ١/١٩٢ .

القصيدة الأولى (٤٠) بيتاً

من دروس تبوك (من الطويل)

١- وبعد صَلاةِ الفَجْرِ يَرْنُو مُحَمّدُ ... لِأصْحابِهِ أَحْواهُمْ يَتَفَقَّدُ

٢- وفي واحِدِ الأيّامِ أَبْصَرَ وافِداً ... عليه علاماتُ المشَقَّةِ تُرْشِد

٣- فقال له مَنْ أَنْتَ : قال ابنُ أسْقعٍ ... ومِنْ أَجْلِ ماذا جِئْتَ :قال مُوَحَّد[١]

٤- تَهَلَّل وَجْهُ المصطفى فَرَحاً به ... وبانَ مِنَ الصَّحْبِ الكِرامِ التَّودُّد

٥- وبايَعَ خَيْرَ الخَلْقِ واثِلَةُ الّذي ... بِبَيْعَتِه المختارَ هاهُوَ يُولَد

٦- لقد بايَعَ المختارَ بالحبِّ والرِّضا ... على ما تُطيقُ النَّفْسُ أو تَتَكَبَّد

٧- فَكُلٌّ يَسيرٌ في سَبيلِ مليكِهِ ... له السَّبْعَةُ الأعضاءُ تَعْنُو وتَسْجُد[٢]

٨- وكُلُّ الّذي في الكَوْنِ يَشْدُو بِحَمْدِهِ ... ولكنّ فِقْهَ الشَّدْوِ لا شَكَّ مُبْعَد

٩- وكان رسولُ الله يَحْزِمُ أَمْرَهُ ... لِدكِّ حُصونِ الرّومِ وَهْي تُعَرْبِد[٣]

١٠- لِتأدِيبها لمّا أرادَ سَفيهُها ... يُوجَّهُ جيشاً حَيْثُ يَحْكُمُ أحمد

١١- أَظَنّ هِرَقْلٌ أنَّ جَيْشَ محمّدٍ ... كَجَيْشِ أنوشِرْوان لِلنّارِ يَعْبُد

١٢- لَقَدْ غَرّهُ أن سار لِلْقُدْس ماشِياً ... لإحياءِ ذِكْرِ النَّصْرِ إذْ طال مَوْلِد[٤]

---

(١) واثلة بن الأسقع ٢٢ ق . هـ ٨٣ هـ = ٦٠١-٧٠٢م صحابي مِنْ أهل الصّفّة ، صلّى مع النبي صلّى الله عليه وسلّم الصُّبح وأسلم . وكان النّبيّ صلّى الله عليه وسلّم يتجهّز إلى تبوك فشهدها معه . وقد حمله كعب بن عُجْرَة رضي الله تعالى عنه إلى تبوك . وقد شهدا في أثناء غزوة تبوك مع خالد بن الوليد غزوة دُومة الجندل . وهو آخر الصّحابة موتاً في دمشق . وقد ضرب كلَّ من واثلة بن الأسقع وكعب بن عُجْرة المثل الأعلى في التضحية والإيثار ابتغاء وجه الله تعالى . انظر تهذيب الأسماء واللّغات ١٤٢/٢ والأعلام ١٠٧/٨ وأسد الغابة ٧٧/٥ والإصابة ٦٢٦/٣ .

(٢) تعنو : تّخضع وتَذِلّ .

(٣) يَحْزِم أمره : يضبطه ويتقنه . تُعَرْبِد : يسوء خُلُقها كعربدة السّكران وإيذائه .

(٤) مشى هرقل سنة سبعٍ من الهجرة مِنْ حِمْص إلى إيلياء (مدينة بيت المقدس) شكراً على الانتصار الرّائع على الفُرْس . انظر فتح الباري ١٠٩/٦ حديث رقم ٢٩٤٠ والسّيرة النّبويّة لأبي الحسن النّدوي ص٣٠٥ .

١٣- وأَقْــرَبُ مِنْــه دَرْسُ مؤتَــةَ إنّــهُ كتــابٌ عظــيمٌ نُــورُهُ يَتَجــدَّد[١]

١٤- ثَلاثــةُ آلافٍ سَــعَى كُــلُّ واحِــدٍ إلى نَيْــلِ إحــدى الحُسْــنَيَيْنِ فَيَسْــعَد

١٥- وقَــدْ قَــدّمَ القُــوّادُ أَعْظَــمَ صُــورةٍ بمــا قَدَّمَتْــهُ مِــنْهم الــرُّوحُ واليَــد

١٦- وها هو ذا المُخْتارُ في وَقْتِ عُسْرَةٍ يُسَــمَّى صَــرِيحاً قَصْــدَهُ ويُجَــدَّد

١٧- لَقَــدْ أَمِــنَ الأعــداءُ جَــيْشَ محمّــدٍ يُهــاجِمُهُمْ في عُقْــرِهم ويُهَــدَّد[٢]

١٨- وهــا هــي ذي راياتُ جــيش محمّــدٍ تُرَفْــرِفُ فــوق الجــيشِ تَسْــعَى وتَجْهَــد

١٩- تَبُــوكُ مُناهــا حَيْــثُ آخِــرُ غــزوةٍ غَزاهــا رســولُ اللهِ والــرّوْضُ فَدْفَــد[٣]

٢٠-بنو الأَصْفرِ الحَمْقَى قَدِ اصْفَرّ لونُهُمْ بكــلّ إزارٍ للْبَطــارِقِ مُجْسَــد[٤]

٢١- وأمّــا جُــذامٌ فالجُــذامُ أصــابها فــلا الخَيْــرَ تُدْنِيــهِ ولا الشَّــرَّ تُبْعِــد[٥]

٢٢- ولَخْــمٌ لِلُخْــم البَحْــرِ عــادَتْ خَلِيفــةً بِكُــلَّ سَــفينٍ جَمْعَــهُ تَتَصــيَّد[٦]

٢٣- وعامِلــةٌ في النّــار ناصِــبَةٌ بهــا عليهــا عــذابُ اللهِ جَمْــرٌ ومَوْقِــد

٢٤- لقــد مَــلأَ المختــارُ كُــلَّ أُنــوفِهِمْ رَغامــاً وأطــرافُ الأســنّةِ رُصَّــد[٧]

---

(١) كانت غزوة مؤتة في جمادى الأولى سنة ثمانٍ من الهجرة . ومؤتة في الأُرْدنّ حاليّاً . والقوّاد الثّلاثةً الّذين عيّنهم النّبيّ صلّى الله عليه وسلّم واستُشْهِدُوا زيد بن حارثة ، وجعفر بن أبي طالب ، وعبد الله بن رواحة رضي الله عنهم أجمعين .

(٢) عُقْر الدّار : وَسَطها .

(٣) تبوك : موضع بين وادي القرى والشّام في شمال المملكة العربيّة السّعوديّة . والفدفد : الصّحراء .

(٤) بنو الأصفر هم الرّوم . وهم إحدى الجماعات الّتي تحزّبت ضدّ النّبيّ صلّى الله عليه وسلّم ، وكذلك جُذام ولَخْم وعاملة . والإزار : ثوب يحيط بالنّصف الأسفل من البدن . والبطارق والبطاريق جمع البطريق بمعنى القائد من قوّاد الرّوم . والمُجْسَد بضمّ الميم وفتح الجيم بمعنى الزّعفران وهو أصفر . والمراد أنّ قوّاد الرّوم أحدثوا من الخوف في ملابسهم الدّاخليّة ، فكيف بالجنود .

(٥) أصاب قبيلة جُذام مرض الجُذام وهو عِلّةٌ تتأَكّل منها الأعضاء وتتساقط .

(٦) لجأت قبيلة لَخْم لصيد لُخْم البحر ، بضمّ اللّام وسكون الخاء وهو سمك القِرْش .

(٧) الرَّغام ، بفتح الرّاء : التّراب .

٢٥–وعن مُعْجِزاتِ المصطفى حَدَّث الورَى فكِسْرَى ولا كِسْرى وقَيْصَرُ أَبَعَد[١]

٢٦– أكيدِرُ ذاتِ الجَنْدلِ الصَّلْدِ حَظُّهُ كحظِّ اسمِهِ غَمٌّ صَغارٌ تَبَلُّد[٢]

٢٧– وماَ نَطَقَ المختارُ يوماً عن الهوى ولكنَّهُ وَحْيٌ مِنَ اللهِ يُرْفَد

٢٨– تَنَبَّأَ خَيْرُ الخَلْقِ أنّ أُكَيْدِراً سَيَلْقاهُ سَيْفُ اللهِ لِلصَّيْدِ يَرْصُد[٣]

٢٩– وفي جَيْشِ سَيْفِ اللهِ واثِلَةُ الّذي مَضَى ودموعُ العَيْنِ عِقْدٌ منضَّد[٤]

٣٠– فإنّ حَبيبَ اللهِ لاظَهَرَ عِنْدَهُ وإنّ قَضاءَ النَّحْبِ في الحقّ سُؤْدَد[٥]

٣١– وهذا الهُمامُ الشَّهْمُ كَعْبُ بُن عُجْرَةٍ يُوَفِّقُهُ الرّحمنُ لِلظَّهْرِ يُوجِد[٦]

٣٢– وها الأبيُّ الشَّهْمُ واثلةُ الفَتَى يبادِلُ بالإحسان كعباً ويُوعِد

٣٣– فَكُلُّ الّذي يَحْظَى بِهِ مِنْ غَنِيمَةٍ لِكَعْبٍ ولو كانَتْ هِيَ البَحْرُ يُزْبِد

٣٤– ويُغْنيهِ عن نَيْلِ الغَنِيمةِ عاجِلاً جِنانٌ مِنَ الفِرْدَوْسِ فيها يُخَلَّد

٣٥– لقد أَكْرَمَ اللهُ الهُمامَ ابنَ أَسْقَعٍ بِغُنْمٍ ، وما في الغَيْبِ أبْقَى وأجود

٣٦– فَجاءَ بِرِزْقِ اللهِ كَعْبَ بنَ عُجْرَةٍ يُسَلِّمُهُ الغُنْمَ الكبيرَ وَيُفْرِد

---

(١) الوَرَى : الخَلْق .

(٢) أُكيدر بن عبد الملك الكندي : ملك دُومة الجندل (الجوف) في شمال المملكة العربيّة السّعوديّة . كان مولعاً بالصّيد وله حِصْنٌ وثيق . وجّه النّبيّ صلّى الله عليه وسلّم إليه من تبوك خالد بنَ الوليد في ٤٢٠ فارساً وفيهم واثلة بن الأسقع وكعب بن عُجْرة رضي الله تعالى عنهم أجمعين .

(٣) سيف الله : خالد بن الوليد .

(٤) حينما لم يستطع الرّسول صلّى الله عليه وسلّم حمله إلى تبوك ضِمْن الّذين فاضت أعينهم من الدّمع . منضّد:مُنَسَّق .

(٥) النَّحْب : النّذر والموت في سبيل الله تعالى ونيل الشَّهادة .

(٦) كعب بن عُجْرة صحابيّ . شهد المشاهد كلّها . توفّي بالمدينة سنة ٥١هـ =٦٧١م عن نحو ٧٥ سنة . وهو رضي الله تعالى عنه الّذي حمل واثلة بن أسقع إلى تبوك ، فوعده واثلة أن يكون له سهمه من الغنيمة مقابل حمله إلى تبوك . وقد رفض كعب أخذ سهم واثلة من غنيمة غزوة دُومة الجندل ابتغاء ثواب الله تعالى . وقد أظهر كعبٌ أوّل الأمر أنّه سيوافق على أخذ سهم واثلة من الغنيمة كي يرفع الحرج عن واثلة . رضي الله تعالى عنهما وأرضاهما.

٣٧- تَبَسَّـــمَ كعـــبٌ ثمّ ضَـــمَّ رَفِيقَـــهُ وقَبَّـــلَ مِنْـــهُ الـــرّأسَ وهْـــوَ يـــردَّد

٣٨- ألا بارَكَ الـــرّحمنُ في الخَـــيْرِ نِلْتَـــهُ وفي المـــالِ تُحْصِـــيه غَـــداً وتُعَـــدَّد

٣٩- رجـــائي إلى الـــرّحمنِ فَـــيْضُ ثوابِـــهِ وفَـــيْضُ عطـــاياُه الّـــتي لـــيس تَنْفَـــد

٤٠- كـــلانا فقـــيرٌ يَرْتَجِـــي فَضْـــلَ ربَّـــهِ وفي مِثْـــلِ فِعْلَيْنـــا التّنـــافُسُ يُحْمَـــد

تمّت

يوم الجمعة ٢٤/٦/١٤٢٤هـ

مكّة المكرّمة

أصحاب الفيل

معروفٌ أنّ النّبيّ صلّى الله عليه وسلّم وُلِد عام الفيل . وقد كانت العرب تؤرّخ بالحوادث العظام ، والخطوب الجسام . وسمّي هذا العام بعام الفيل لأنّ الله تعالى أهلك فيه أصحاب الفيل الّذين جاءوا لهدم الكعبة المشرّفة بقيادة أبرهة الأشرم[١] الحبشيّ ، والى نجاشي الحبشة على اليمن . وكان أبرهة قد بنى في صنعاء كنيسةً غايةً في الفخامة والجمال كي يصرف العرب عن الكعبة المشرفة في مكّة المكرّمة إلى تلك الكنيسة ، وإلى دين النّصرانيّة .

وقد جعل أبرهة الفيل واسمه محمود[٢] فيما يقال ، أمام الجيش ، كي يخيف العرب بكلٍّ من الجيش الّذي كان عدده وعتاده كبيرين فسحق به من صادفه[٣] وبالفيل الّذي كان آنذاك حيواناً غريباًَ في عين العرب ومتوحّشاً .

لقد أهلك أبرهة في طريقة الحرث والنّسل ، وقَتَل وأَسَر وأذلّ . وحينما شارف مكّة المكرّمة استولى على مائتين من الإبل لجدّ النّبيّ صلّى الله عليه وسلّم عبد المطّلب بن هاشم[٤] .

ولمّا لم يكن لعبد المطّلب والقرشيّين طاقةٌ بأبرهة وجيشه الغاشم فإنّ عبد المطّلب استردّ من أبرهة المائتي البعير التي تخصّه . وحينما أبدى أبرهة عبر ترجماته عجبه من عبد المطلب الّذي كلّمه في إبِلِه ولم يكلّمه في هدم البيت ، وقد عرف تصميمه على هَدم البيت ، قال لأبرهة فيما قال : أنا ربُّ إبلي ، ولِلْبَيْت ربٌّ يحميه .

ركب أبرهة رأسه ، ومضى بجيشه قُدُماً كي يهدم البيت العتيق ، ولم يُصْغ لأيّ ناصح ، ولم يستفد من حبس الحقّ جلّ وعلا الفيل الّذي اسمه محمود عن التقدّم نحو الحرم، في

---

(١) لُقّب أبرهة بالأشرم لأنّه حينما بارز في الحرب خصمه أرياط الحبشيّ ضربه أرياط بحربةٍ وقعت على جبهة أبرهة فشرمت حاجبه وأنفه وعينه وشفته ، فبذلك سمّي أبرهة الأشرم . السيرة ١/٦٠ .

(٢) السّيرة ١/٦٩ .

(٣) انظر بشأن ما فعل أبرهة في طريقه السّيرة ١/٦٣-٦٩ .

(٤) السيرة النبوية ١/٦٦

الوقت الّذي يهرول مُسْرِعاً حينما يوجَّه إلى كلّ جهةٍ أخرى .

أمّا عبد المطّلب وأهل مكّة فقد صعِدوا على رءوس الجبال ينظرون ما الله تعالى فاعلٌ بالقوم الّذين طَغَوْا وبَغَوْا . إنّهم لا طاقة لهم بأبرهة وجنوده . وقد دعوا الله تعالى وأخلصوا الدّعاء بأن يمنع عزّ وجلّ بيته الحرام ، ويردّ كيد الفجّار ، ويهلك الجبّار .

لقد جعل الحقُّ جلّ وعلا تدبير أبرهة وجنوده تدميراً لهم ، وردّ كيدهم في نحورهم ، وأرسل عليهم جماعاتٍ من الطّير يحمل الواحد منهم حجرين في رجليه وحجراً في منقاره. وهذا الحجر الواحد يرمي به الطّائر فيثقب من سقط عليه ، وما سقط عليه ، حتّى يصل إلى الأرض . ولم ينج من ذلك الجيش الكثيف إلاّ عددٌ قليلٌ بإرادة الله تعالى . وأصيب أبرهة في جسده ، وحُمِلَ وهو تسقط أنامله أُنْمُلةً أنملة ، وأجزاءٌ من جسده قطعةً قطعة ، حتّى وصل صنعاء وهو مثل فرخ الطّائر ، وهنالك هَلَك عليه لعنة الله تعالى .

وقد أنزل الله تعالى في هذه الحادثة العظيمة سورة الفيل المكّيّة الكريمة [1] قال تعالى:

﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ (١) أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِي تَضْلِيلٍ (٢) وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ (٣) تَرْمِيهِم بِحِجَارَةٍ مِّن سِجِّيلٍ (٤) فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍ (٥) ﴾ .

والمعنى ، والله تعالى أعلم [2] ألم تنظر أيّها الرّسول الكريم ، والنّبيّ العظيم ، بعين قلبك فترى بها كيف فعل ربّك عزّ وجلّ ، بأصحاب الفيل ، الّذين قدموا من اليمن ، يريدون تخريب الكعبة ، من الحبشة ، ورئيسهم أبرهة الحبشيّ الأشرم[3] ألم يجعل كيدهم في إضلالٍ لأنفسهم[4] وفي تضليلهم عمّا أرادوا وحاولوا من تخريبٍ للكعبة المشرّفة وهدمٍ للبيت

---

(١) الإتقان ٤٢/١ والسّيرة النّبويّة ٧١/١ .

(٢) اعتمدنا في التفسير غالباً على التفسير البسيط الّذي أكرمنا الله تعالى بإتمامه فعملناه كاملاً لمسابقة الملك عبد العزيز الدّوليّة لحفظ القرآن الكريم وتلاوته وتفسيره .

(٣) تفسير الطّبري ١٩١/٣٠ .

(٤) انظر مفردات الرّاغب الأصفهاني : " ضل " ٣٨٩/٢ .

العتيق[١] .

وأرسل جلّ وعلا عليهم طيوراً متتابعةً مجتمعة[٢] ترميهم بحجارةٍ من طينٍ أوقِدَ عليه في النّار فصار شديداً صُلْباً[٣] فكان الحجر الواحد حينما يَرْمِي به الطّائرُ الواحدَ من منقاره أو إحدى رجليه يثقب كلاًّ من الفارس والرّاجل حتّى يصل إلى الأرض . فجعل الله تعالى أصحاب الفيل كورق زرعٍ أكلته البهائم فراثته فيبس وتفرّقت أجزاؤه وطارت به الرّياح[٤] .

وهكذا مضى أصحاب الفيل كأمس الدّابر ، وغدوا أثراً بعد عين .

وعام الفيل هذا هو الّذي وُلِدَ فيه النّبيّ صلّى الله عليه وسلّم . وبذلك يكون إهلاك الله تعالى أبرهة وجيشه إكراماً لمحمّد بن عبد الله ، خاتم النّبيّين ، وأشرف المرسلين ، عليهم جميعاً صلوات ربّ العالمين وسلامه . كما يكون في هذه الحادثة تنبيه لقبيلة قريش على وجوب القيام بالشّكر لله تعالى على هذه النّعمة العظيمة والمنّة الجسيمة .

وحثّاً لقبيلة قريش ، قوم المصطفى صلّى الله عليه وسلّم ،على الشّكر لله تعالى الّذي أطعمهم من جوع وآمنهم من خوف ، وذلك بإفراد الله تعالى بالعبادة ، نزلت سورة قريش المكّيّة الكريمة[٥] قال تعالى :

﴿ لِإِيلَافِ قُرَيْشٍ (١) إِيلَافِهِمْ رِحْلَةَ الشِّتَاءِ وَالصَّيْفِ (٢) فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ (٣) الَّذِي أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ وَآمَنَهُم مِّنْ خَوْفٍ (٤) ﴾ .

والمعنى ، والله تعالى أعلم . من أجل إيلاف قريش[٦] ولزومهم ، إلفهم واعتيادهم ،

---

(١) انظر تفسير الطبري ١٩١/٣٠ .

(٢) انظر الطّبري ١٩٢/٣٠ .

(٣) انظر هنا السّيرة النبوية ٧٢/١ في تبيين معنى : " سجّيل " .

(٤) انظر هنا تفسير الطّبري ١٩٦/٣٠ ولسان العرب : " عصف " .

(٥) الإتقان ٤٢/١ والسّيرة النّبويّة ٧١/١ .

(٦) الجدول في إعراب القرآن وصرفه ٣٤٧/١٣ .

رحلة الشّتاء إلى اليمن ، ورحلة الصّيف إلى الشّام [١] ليعبد القرشيّون ربّ هذا البيت[٢] الّذي أطعمهم من جوع ، بدعوة إبراهيم صلّى الله عليه وسلّم حيث قال[٣] :

﴿ وَارْزُقْهُم مِّنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ ﴾ [٤]

وآمنهم من خوف ، حيث قال إبراهيم عليه السلام [٥] :

﴿ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا الْبَلَدَ آمِنًا ﴾ [٦]

هذه المعاني وما في حكمها أوحت بالقصيدة التّالية .

---

(١) انظر تفسير الطّبري ١٩٩/٣٠ والسّيرة النّبويّة ٧٢/١

(٢) الجدول في إعراب القرآن وصرفه ٣٤٧/١٣ .

(٣) سورة إبراهيم ٣٧ .

(٤) تفسير الّطبري ١٩٩/٣٠ .

(٥) سورة إبراهيم ٣٥ .

(٦) تفسير الطّبري ١٩٩/٣٠ .

القصيدة الثّانية (٥١) بَيْتاً

من دروس عام الفيل (من الوافر)

١- هُمُ الأَحْباشُ قد لَبِسُوا الحديدا ... وفوق رءوسِهِمْ نَشَرُوا البُنودا[١]

٢- وقد مَلأَتْ جُيوشُهمُ الفيافي ... فما رَحِمَتْ كثِيباً أو صعِيدا[٢]

٣- وفي أَعْماقِهِمْ حِقْدٌ دَفينٌ ... كغَلْي القِدْرِ قد زيدَتْ وَقُودا

٤- أرادوا هْدمَ بيتِ اللهِ جَهْلاً ... فَلَسْتَ تَرَى لِجَهْلِهِمُ نَديدا[٣]

٥- كأنَّ البيتَ يَمْلِكُهُ عِبادٌ ... يكونونَ ٱلْمُسَوَّد والْمَسُودا[٤]

٦- ألا لِلْكَعْبةِ الغَرّاءِ رَبٌّ ... وَرَبُّ البيت أَجْدَرُ أن يَذُودا

٧- لقد دَكُّوا بِبطْشِهِمُ حُصُوناً ... وقد صاغُوا بِبِغْيِهِمُ قُيودا

٨- وقد سامُوا ملوكاً ذُلَّ أَسْرٍ ... وقد مَلأُوا دروبَهُمُ لحودا

٩- وقد مَنَحُوا الحياةَ لِكُلَّ نَذْلٍ ... يَدُلُّهُمُ إذا يَخْشَوْن بِيدا[٥]

١٠- ويُرْشِدُهُمْ إلى عَوْراتِ قومٍ ... هُمُ الآباءَ كانوا أو جُدودا

١١- أبو يَكْسومَ قد أَرْداهُ بَغْيٌ ... ولم يَكُنِ الحليمَ ولا الرَّشيدا[٦]

١٢- وكان أَحَطَّ خَلْقِ اللهِ عَقْلاً ... ومِنْ فيلٍ لَهُ أَضْحَى حَميدا

١٣- أَلَمْ يَكُ فيك يا محمودُ دَرْسٌ ... لِباغي الشَّرَّ من قاد الحُشودا[٧]

١٤- ومَنْ أَعْماهُ شَيْطانٌ مَريدٌ ... فلم يَرَ غير يَوْمِ الشُّؤْمِ عيدا

---

(١) البنود : الأعلام الكبار والمفرد بند .

(٢) الفيافي : الصّحاري الواسعة المستوية والمفرد فيفاء .

(٣) نديداً : مثيلاً ونظيراً ونِدّا .

(٤) المسوَّد : الّذي يسوّده قومه ويجعلونه سيّداً ورئيساً . والمَسُود بعكس ذلك .

(٥) بيدا : جمع بيداء بمعنى الفلاة .

(٦) أبو يكسوم : كنية أبرهة الحبشيّ ، ويكسوم ولده .

(٧) محمود : اسم فيل أبرهة .

١٥- أَلَمْ يَرَحَبسَ رَبَّ الْعَرشِ جَهْراً لِمخلوقٍ لَهُ كانَ العَمِيدا[١]

١٦- لِأَيَّةِ وِجْهَةٍ قادُوهُ أَصْغَى أرادُوا الشَّرْقَ أَوْ غَرْباً بَعيدا

١٧- يُهَرْولُ ليس يُدْرِكُهُ رِفاقُ ولو نُسِبُوا لِذاتِ الطَّوْقِ جِيدا[٢]

١٨- وإن شاءُوا التَّوَجُّهَ شَطْرَ بَيْتٍ إذن أَعْيا الْمَطارِقَ والحديدا[٣]

١٩- أراد الأَحْمَقُ المَأْفُونُ عمداً يُرَوِّعُ آمِناً ويُهينُ صِيدا[٤]

٢٠- ويَسْلُبُ جَدَّ خيرِ الخَلْقِ طُرّاً كريمَ المالِ فَحْلاً أو قَعودا[٥]

٢١- ألا بيتُ الإلهِ لهُ ذِمارٌ سَيَمْنَعُهُ ويَمْنَحُهُ صُعودا[٦]

٢٢- وجَدُّ محمّدٍ يَعْنِيه نُوقٌ طريفَ المالِ كانت والتَّلِيدا[٧]

٢٣- لقد هَزِيءَ الشَّقِيُّ بِرَبِّ نُوقٍ دَعاهُ لأنه يكون أخاً وَدُودا

٢٤- وكان يُريدُ إلحاداً بِظُلمٍ ينالُ البيتَ والبَلَدَ المَجيدا

٢٥- أراد يَهُدُّ بَيْتَ اللهِ بَغْياً يُطِيحُ الجُدْرَ مِنْهُ والعُقودا

٢٦- يُدَمَّرُهُ يُسَوِّيهِ بِأَرْضٍ يُضِيعُ الأُسَّ مِنْهُ والحُدودا[٨]

٢٧- أرادَ يُديرُ وَجْهَ العُرْبِ ظَهْراً إلى بيتٍ لِتَثْليثٍ أُشيدا

٢٨- فَقُرْصُ الشَّمْسِ يأْتِي مِنْهُ ضَوْءٌ وكان الدِّفْءُ سِبْطهما الوليدا[٩]

---

(١) العميد : القائد . وكان الفيل أمام الجيش .

(٢) ذات الطّوق جيدا : هي الحمامة المطوّقة في عنقها خِلْقة .

(٣) المطارق : جمع مِطَرقة ، وهي آلةٌ حديديّة .

(٤) المأفون : النّاقصَ العقل . والصَّيد الحكّام والمفرد أصْيَد .

(٥) جَدّ النّبيّ صلّى الله عليه وسلّم عبد المطّلب بن هاشم . والقعود : بفتح القاف : الجمل الشّابّ .

(٦) الذِّمار ، بكسر الذّال : ما ينبغي الذّود عنه .

(٧) طريف المال : المستفاد من المال حديثاً . والتّليد : المال الأصليّ القديم .

(٨) الأُسّ : الأساس .

(٩) الّذين قالوا إنّ الله تعالى ثالث ثلاثة يزعمون أنّهم موحّدون ، ويدّعون أنّ التّثليث شيءٌ واحدٌ في الحقيقة ، وذلك كقرص الشّمس ، الّذي يولّد الضَّوْء ، ومن الضّوء تتولّد الحرارة . إنّهم يعتمدون قرص الشّمس وَحْدَه ويتغاضَون عن الضَّوْء الّذي نزّله النّاظم منزلة الابن ، وعن الحرارة الّتي نزّلها النّاظم منزلة السِّبط أو الحفيد ، وهما بمعنًى واحد .

٢٩- لقد زَعَمُوا الْمُثَلَّثَ مُسْتَقِيماً ... كـذا أَخْـفَوْا مـع الولـد الحْفِيـدا

٣٠- هُـمُ يَسْـتَهْزِئونَ بِكُـلَّ رَأْيٍ ... يُخـالِفُهُمْ وإن كـان السَّـدِيدا

٣١- تعـالَى اللهُ لـيس لـه شَـرِيكٌ ... وكـان الواحِـد الصَّـمدَ المُعِيـدا

٣٢- علـى تَسْـبِيحِهِ فَطَـرَ الوُجـودا ... علـى تَوْحِيـدِه فَطَـرَ العَبيـدا

٣٣- إذا انْحَـطَّ الأُباةُ لِـداءِ شِـرْكٍ ... يكـون دواؤهـم شِـرْكاً جديـدا !

٣٤- ألا إنّ الـدّواءَ رسـولُ ربٍّ ... يكـون الخـاتِمَ العِقْـدَ الفَريـدا

٣٥- يقـود المـؤمنين إلى جِنـانٍ ... يكـونَ مَقـامُهُمْ فيهـا خُلـودا

٣٦- تَغَـنَّ بِمُعْجِـزاتٍ باهـراتٍ ... لِطـه إنّهـا طابَـتْ نَشِـيدا

٣٧- فمـا كُتِبَـتْ بِـدَمْعِ العَـيْنِ لكـن ... بمـا حَمَـلَ الّـذي أَخْفَـى الوَرِيـداَ[1]

٣٨- بَشـائِرُ بَعْثِـهِ في عـامِ فيـلٍ ... بِحَـقٍّ كـان ذا زمنـاً مَجيـداً

٣٩- بِهـذا العـامِ أَشْـرَقَ نُـورُ طـه ... وأَخْـزَى الله أَبْرَهَـة الْحَقُـودا

٤٠- وَمَـزَّقَ جَيْشَـهُ في كُـلَّ صَـوْبٍ ... وأَرْسَـلَ فَوْقَـهُ الـدّاءَ الْمُبِيـدا

٤١- صِـغارُ حِجـارةٍ مِـنْ حُـرَّ طِـينٍ ... ونارٍ أَهْلكَـتْ جَيْشـاً عَتِيـدا

٤٢- ومَـنْ حَمَـلَ الحِجـارةَ غَيْـرُ طَـيرٍ ... جَماعـاتٍ أَحَلْـنَ الخَصْـمَ دُودا ؟

٤٣- إلـه البَيْـتِ أَكْـرَمَ قَـوْمَ طـهَ ... وأَبْعَـدَ عَـنْهمُ الْخَطَـرَ الأَكيـدا

٤٤- وَأَبْـدَلَهُمْ مكـان الخَـوْفِ أَمْنـاً ... فمـا عَرَفُـوا مـن الأَيّامِ سُـودا

٤٥- وَأَطْعَمَهُـمْ فَهُـمْ يَجِـدُون رِزْقـاً ... تمَنَّـوْهُ ثَرِيـداً أو قَدِيـدا[2]

٤٦- وآمَـنَ دَرْبَهُـمْ في رِحْلَتَـيْهِمْ ... أرادُوا الشَّـامَ أو يَمَنَّـا سَـعيدا

٤٧- وكـان علـيهِمُ تَوْحيـدُ رَبٍّ ... إذا شـاءُوا رُكوعـاً أو سُـجودا

٤٨- وهـل دَرْبٌ لَهُـمْ مِـنْ دُون طـهَ ... إذا شـاءوا لِجَنَّـاتٍ وُرودا ؟

---

(١) القلب حمل الدّم وأخفى الوريد .

(٢) الخبز الثّريد هو الّذي يُفَتّ ثمّ يُبَلّ بالمَرَق . والقديد من اللّحم : ما قُطِع طولاً ومُلِّح وجُفِّف في الهواء والشّمس.

٤٩- وهل نُورْ لَهُمْ مِنْ دُون ذِكْرٍ ٥٠- وسُـــنَّةِ مَـــنْ أَبى لَيْـــلاً هُجـــود[١]

ألا هـــــذا الطَّرِيـــــقُ إلى رَشـــــادٍ لِمَـــنْ شـــاءُوا يكونـــون الرَّشِـــيدا[٢]

٥١- ألا هـــذا الطَّرِيـــقُ إلى صَـــلاحٍ لِمِـــنْ شـــاءُوا يكونـــون الأُســـودا[٣]

تمّت

مكّة المكرّمة ١٤٢٤/٨/١١هـ

(١) هجودا : نوما .

(٢) الرّشيد : هارون الرّشيد .

(٣) الصّلاح : صلاح الدّين والدّنيا ، وكذلك صلاح الدّين الأيّوبي .

﴿ اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ ﴾

حينما كان النّبيّ صلّى الله عليه وسلّم في الأربعين من عمره نزلت عليه أولى قطرات غيث القرآن الكريم في هيئة الآيات الخمس الأُوَل من سورة العَلَق المكّيّة الكريمة[١] .

سبب النّزول :

روى الإمامان البخاري ومسلم[٢] واللّفظ للبخاريّ عن عروة بن الزّبير عن عائشة أمّ المؤمنين أنّها قالت : أوّل ما بُدئ به رسول الله صلّى الله عليه وسلّم من الوحي الرّؤيا الصّادقة[٣] في النّوم ، فكان لا يرى رؤيا إلاّ جاءت مِثْلَ فَلَق الصّبح [٤] ثمّ حُبّب إليه الخلاء[٥] وكان يخلو بغار حراء[٦] فيتحنّث فيه [٧] . وهو التّعبّد اللّيالي ذواتِ العَدَد[٨] قبل أن يَنْزِع[٩] إلى أهله ، ويتزوّدُ لذلكَ[١٠] ثمّ يرجعُ إلى خديجة [١١] فيتزوّدُ لمثلِها، حتّى جاءه الحقّ[١٢] وهو في غار حراء ، فجاءه المَلَك [١٣] فقال

---

(١) الإتقان ٤٢/١ .

(٢) صحيح البخاري ٣/١ وفتح الباري ٢٢/١ حديث رقم ٣ وصحيح البخاري ٢١٤/٦ وفتح الباري ٧١٥/٨ حديث رقم ٤٩٥٣ وانظر صحيح مسلم ١٩٧/٢ وتحقيق محمّد فؤاد عبد الباقي ١ /١٣٩ حديث رقم ٢٥٢ .

(٣) هذه رواية صحيح البخاري ٢١٤/٦ وفتح الباري ٧١٥/٨ وصحيح مسلم ١٣٩/١ و١٤٣ حديث رقم ٢٥٤ أمّا رواية صحيح البخاري ٣/١ وفتح الباري ٢٢/١ فإنّها : " الرّؤيا الصّالحة " .

(٤) فَلَق الصُّبح ضياؤه لظهوره الواضح الّذي لا شكّ فيه . فتح الباري وصحيح مسلم ١٤٠/١ .

(٥) الخلاء بالمدّ الخلوة ، والسّرّ فيه أنّ الخلوة فراغ القلب لما يتوجّه له . فتح .

(٦) الغار : نَقْبٌ في الجبل . وحراء : جبلٌ معروفٌ بمَكّة . فتح .

(٧) التّحنّث : إلقاء الحِنْث . وهو الإثم . وقيل هو بمعنى يتحنّف أي يتبع الحنيفيّة ، وهي دين إبراهيم . فتح

(٨) مدّة الخلوة شهر ، هو شهر رمضان . فتح .

(٩) ينزع بكسر الزّاي أي يرجع ، وزناً ومعنى . فتح

(١٠) التّزوّد : استصحاب الزّاد . فتح

(١١) خديجة هي أمّ المؤمنين بنت خويلد بن أسد بن عبد العُزَّى . فتح

(١٢) حتّى جاءه الحقّ : أي الأمر الحقّ . فتح

(١٣) المَلَك : هو جبريل عليه السلام . فتح . وقد ثبت في صحيح مسلم (انظر مثلاً ٢٠٨/٢ و٢٠٩ فما بعدهما. وتحقيق محمّد فؤاد عبد الباقي ١٤٣/١-١٤٥ الأحاديث رقم ٢٥٥ و٢٥٦ و٢٥٧ و ٢٥٨) عن

: اقرأ . قال : ما أنا بقارئ[١]، قال : فأخذني فغطّني[٢] حتّى بلغ منّي الجَهْد[٣] ثمّ أرسلني[٤] فقال : اقرأ . قلت : ما أنا بقارئ . فأخذني فغطّني الثّانية حتّى بلغ منّي الجَهْد ثمّ أرسلني فقال : اقرأ . فقلت : ما أنا بقارئ . فأخذني فغطّني الثّالثة ثمّ أرسلني فقال : ﴿ اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ(١) خَلَقَ الْإِنسَانَ مِنْ عَلَقٍ(٢) اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ(٣) الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ(٤) عَلَّمَ الْإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ(٥) ﴾[٥] فَرَجَعَ بها[٦] رسول الله صلّى الله عليه وسلّم يَرْجُف فؤاده ، فدخل على خديجة بنت خويلدٍ رضي الله عنها فقال : زمّلوني زمّلوني . فزمّلُوه[٧] حتى ذهب عنه الرَّوع[٨] فقال لخديجة وأخبرها الخبر : لقد خشيت على نفسي[٩] فقالت خديجة : كلاَّ[١٠] والله ما يُخْزيك[١١] الله أبداً ، إنّك لتصل الرَّحِم ، وتَحْمِل الكَلَّ[١٢] وتَكسِب المعدوم[١٣] وتَقْرِي

عائشة مرفوعاً : لم أره – يعني جبريل – على صورته الّتي خُلِق عليها إلاّ مرّتين . وبيّن أحمد في حديث ابن مسعود أنَّ الأولى كانت عند سؤاله إيّاه أن يريه صورته التي خُلِق عليها . والثّانية عند المعراج . وللتّرمذيّ عن عائشة : لم ير محمّد جبريل في صورته إلاّ مرّتين ، مرّة عند سدرة المنتهى ، ومرّة في أجياد . فتح . وأجياد شرقيّ المسجد الحرام .

(١) ما أنا بقارئ : أي ما أحسن القراءة . وما نافية . فتح .

(٢) الغَطّ : حبس النَّفَس ، ومنه غطّه في الماء . والمعنى : ضمّني وعصرني . فتح

(٣) الجهد : روي بفتح الدّال ، أي بلغ الغطّ منّي غاية وسعى . وروي بالضّمّ أي بلغ الجُهْد منّي مبلغه . فتح .

(٤) ثمّ أرسلني : أي أطلقني . فتح

(٥) جاء هنا ثلاث آيات كريمات وجاء في حديث رقم ٤٩٥٣ خمس آيات . وقد أكملنا الآيات الكريمات .

(٦) فرجع بها : أي بالآيات أو القصّة . فتح

(٧) فزمّلوه : أي لفّوه . والمزّمّل : المتزمّل في ثوبه . مفردات الرّاغب الأصفهاني : زمل " ١/٢٨٤ .

(٨) الرَّوع ، بفتح الرّاء : الفزع . فتح

(٩) خشيت على نفسي : الموت من شدّة الرّعب . فتح

(١٠) كلاّ : معناها النّفي والإبعاد . فتح .

(١١) ما يخزيك : من الخِزْي . فتح . وهو انكسار النفس . مفردات الرّاغب الأصفهاني خزي " ١/١٩٥ .

(١٢) الكَلّ ، بفتح الكاف : هو من لا يستقلّ بأمره . فتح

(١٣) جاء في صحيح مسلم ١/١٤١ هامش رقم ٨ : قال أبو العبّاس ثعلب وأبو سليمان الخطّابيّ وجماعاتٌ من أهل اللّغة : يقال كَسَبْت الرّجلَ مالاً ، وأكسبته مالاً ، لغتان ، أفصحهما باتفاقهم كسبته بحذف الألف . وأمّا معنى تكسب المعدوم ، فَمَنْ رواه بالضّمّ فمعناه تكسب غيرك المال لمعدوم ، أي تعطيه إيّاه تبرّعا . فحذف أحد

الضّيف ، وتُعِين على نوائب الحقّ[١] فانطلقت به خديجة حتّى أتت به ورقة بن نوفل بن أَسَد بن عبد العُزَّى –ابن عمّ خديجة – وكان امرءاً تنصّر في الجاهليّة ، وكان يكتب الكتاب العِبْرانيّ ، فيكتب من الإنجيل بالعِبْرانيّة ما شاء الله أن يكتب[٢] وكان شيخاً كبيراً قد عَمِي . فقالت له خديجة : يا ابن عمَّ : اسمع من ابن أخيك[٣] فقال له ورقة : يا ابن أخي ماذا ترى ؟ فأخبره رسول الله صلّى الله عليه وسلّم خبر ما رأى . فقال له ورقة : هذا النّاموس[٤] الّذي نزّل الله على موسى[٥] يا ليتني فيها جَذَعا[٦] ليتني أكون حيّاً إذ يُخْرِجُك قومك . فقال رسول الله صلّى الله عليه وسلّم : أَوَ مُخْرِجيّ هُمْ ؟[٧] قال : نعم. لم يأت رجلٌ قَطُّ بِمِثْل ما جِئتَ به إلاّ عودي . وإن يُدْركني يومك[٨] أَنْصُرْك نَصْراً مؤزَّرا[٩] ثمّ لم يَنْشَبْ[١٠] ورقة أن تُوُفّي ، وفتر الوحي[١] .

المفعولين . وقيل معناه : تُعْطي النّاس ما لا يجدونه عند غيرك من نفائس الفوائد ومكارم الأخلاق . وأمّا رواية الفتح فقيل معناها كمعنى الضّمّ .

(١) وتعين على نوائب الحق : كلمةٌ جامعةٌ لأفراد ما تقدّم ولما لم يتقدّم . فتح .

(٢) وإنّما وصفته بكتابة الإنجيل دون حفظه لأنّ حفظ التوراة والإنجيل لم يكن متيسّرا . فتح

(٣) قالت ذلك لأنّ والد النّبيّ صلّى الله عليه وسلّم عبد الله بن عبد المطّلب وورقة في عدد النّسب إلى قصيّ بن كلاب الّذي يجتمعان فيه سواء ، فكان من هذه الحيثيّة في درجة إخوته . أو قالته على سبيل التّوقّير لسنّه . فتح

(٤) النّاموس : صاحب السّرّ . والمراد به هنا جبريل عليه السّلام . فتح

(٥) لم يقل على عيسى مع كونه نصرانيّاً لأنّ كتاب موسى عليه السّلام مشتملٌ على أكثر الأحكام ، بخلاف عيسى . فتح .

(٦) الجَذَع ، بفتح الجيم والذّال المعجمة ، هو الصّغير من البهائم ، كأنّه تمنّى أن يكون عند ظهور الدّعاء إلى الإسلام شابّاً ليكون أمكن لنصره . فتح .

(٧) استبعد النّبيّ صلّى الله عليه وسلّم أن يخرجوه لأنّه لم يكن فيه سببٌ يقتضي الإخراج ، لما اشتمل عليه من مكارم الأخلاق الّتي تقدّم من خديجة وصفها . فتح .

(٨) يعني يوم الإخراج . فتح

(٩) مؤزّرا ، بهمزة ، أي قويّا ، مأخوذٌ من الأزر وهو القوّة . فتح

(١٠) ثمّ لم ينشب ، بفتح الشّين المعجمة : أي لم يلبث . وأصل النّشوب التّعلّق . أي لم يتعلّق بشيء من الأمور حتّى مات . فتح .

وحكى البيهقيّ أنّ مدّة الرّؤيا كانت ستّة أشهر .

وعلى هذا فابتداء النّبوّة بالرّؤيا وقع في شهر مولده وهو ربيع الأوّل بعد إكماله أربعين سنة . وابتداء وحي اليقظة وقع في رمضان . وليس المراد بفترة الوحي المقدّرة بثلاث سنين وهي ما بين نزول : ﴿اقرأ﴾ و﴿ يا أيّها المدّثر﴾ عدم مجيء جبريل إليه ، بل تأخّر نزول القرآن فقط[٢] ..

﴿ اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ(١) خَلَقَ الْإِنسَانَ مِنْ عَلَقٍ(٢) اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ(٣) الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ(٤) عَلَّمَ الْإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ(٥) ﴾

والمعنى ، والله تعالى أعلم :

اقرأ أيّها الرّسول الكريم والنّبيّ العظيم باسم ربّك عزّ وجلّ الّذي ربّاك بنعمه وآلائه، الّذي خلق كلّ شيءٍ وحيّ ، وخلقك يا محمّد وخلق كلّ إنسان . وهكذا تكون القراءة في الإسلام مقرونةً باسم الله تعالى ، لذا فهي قراءةٌ نافعة . وقد تكون القراءة من الذّاكرة، وقد تكون قراءة المكتوب . الله تعالى خلق جنس الإنسان من عَلَق ، أي من دمٍ جامدٍ ، عالقٍ بالرّحم[٣] وهذه المرحلة إحدى مراحل تطوّر الجنين ، ولم تكن معروفةً قبل نزول القرآن الكريم ، فهي من معجزاته . ومراحل تكوّن الجنين لم تُعْرَف إلاّ في القرون الأخيرة بسبب تطوّر العلم . وهذه الحقائق من الأدلّة على أنّ القرآن الكريم موحىً به من ربّ العالمين[٤] .

اقرأ أيّها الرّسول الكريم والنّبيّ العظيم وربّك عزّ وجلّ هو الأكرم من كلّ كريم . إنّه الّذي علّم الكتابة بالقلم . علّم جنس الإنسان ما لم يعلم ، ممّا شاء الله تعالى أن يعلّمه إيّاه.

---

(١) فتور الوحي عبارةٌ عن تأخّره مدّةً من الزّمان ، وكان ذلك ليذهب ما كان صلّى الله عليه وسلم وجده من الرّوع ، وليحصل له التّشوّف إلى العود ، وقيل إنّ فترة الوحي ثلاث سنوات . فتح .

(٢) فتح الباري ٢٧/١ .

(٣) انظر مفردات الرّاغب الأصفهاني : " علق " ٤٤٦/٢ والجلالين .

(٤) انظر هنا مثلاً : علم الأجنّة في ضوء القرآن والسّنّة من مطبوعات هيئة الإعجاز العلميّ في القرآن والسَّنّة برابطة العالم الإسلامي .

ويقترن بالكتابة ما لا يُحصى من النّعم . ومِنْ هذه النّعم ما يتعلّق بالشّخص الكاتب. إنّ الله تعالى هو الّذي خلقه في أحسن تقويمٍ وعلّمه ، ومكّنه من استعمال كلّ الوسائل الّتي تجعل القراءة والكتابة ممكنتين .

إنّ الله تعالى الّذي خلق الإنسان هو الّذي يأمره بأن تكون القراءة باسمه جلّ وعلا . ولله تعالى الخلق والأمر . ويقترن بأمر القراءة الأوّل حاسّة السّمع أساساً . ويقترن بأمر القراءة الثّاني حاسّة البصر أساساً ، كي يَحْسُن توظيف أدوات الكتابة من قلمٍ ومدادٍ وورق وما إلى ذلك .

وهكذا تتجلّى عناية الإسلام الفائقة بالعلم منذ نزول أولى قطرات غيث القرآن الكريم . والمعروف أنّ عناية دين الإسلام بالعلم تفوق عناية كلّ دين .

وقد نزل لاحقا بقيّة آي السّورة الكريمة . قال تعالى :

﴿ كَلَّا إِنَّ الْإِنسَانَ لَيَطْغَىٰ (٦) أَن رَّآهُ اسْتَغْنَىٰ (٧) إِنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ الرُّجْعَىٰ (٨) أَرَأَيْتَ الَّذِي يَنْهَىٰ (٩) عَبْدًا إِذَا صَلَّىٰ (١٠) أَرَأَيْتَ إِن كَانَ عَلَى الْهُدَىٰ (١١) أَوْ أَمَرَ بِالتَّقْوَىٰ (١٢) أَرَأَيْتَ إِن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ (١٣) أَلَمْ يَعْلَم بِأَنَّ اللَّهَ يَرَىٰ (١٤) كَلَّا لَئِن لَّمْ يَنتَهِ لَنَسْفَعًا بِالنَّاصِيَةِ (١٥) نَاصِيَةٍ كَاذِبَةٍ خَاطِئَةٍ (١٦) فَلْيَدْعُ نَادِيَهُ (١٧) سَنَدْعُ الزَّبَانِيَةَ (١٨) كَلَّا لَا تُطِعْهُ وَاسْجُدْ وَاقْتَرِب (١٩) ﴾

حقّاً[١] إنّ جنس الإنسان ليكفر بربّه الّذي فعل به ذلك ويطغى عليه[٢] ويتجاوز حدّه لأن رأى نفسه استغنت[٣] وماله قد نما وكثر ، وينسى أنّ الفضل كلّه لله تعالى . إنّ إلى ربّك يا محمّد رجوع هذا الطّاغي فذائقٌ من أليم عقابه ما لا قِبَلَ له به[٤] .

---

(١) الجلالين .

(٢) انظر تفسير الطّبري ١٦٣/٣٠ .

(٣) تفسير الطّبري ١٦٣/٣٠ ، وانظر معاني القرآن للفرّاء ٢٧٨/٣ .

(٤) انظر تفسير الطّبري ١٦٣/٣٠ و مفردات الرّاغب الأصفهاني " رجع " ٢٥٠/١ وتفسير ابن كثير ٤٥٩/٨.

والحديث بعد ذلك عن أبي جهل المكذّب المعرض عن الحقّ الّذي ينهى عبداً إذا صلّى لله تعالى ، وهو محمّدٌ صلّى الله عليه وسلَّم . جاء في صحيح البخاري[١] عن عكرمة قال ابن عبّاس قال أبو جهل : لئن رأيت محمّداً يصلّي عند الكعبة لأطأنّ على عنقه . فبلغ ذلك النّبيّ صلّى الله عليه وسلّم فقال : لو فعله لأخذته الملائكة .

وفي معرض التّعجّب من أعمى البصيرة هذا يجئ القول : ﴿ أَرَأَيت ﴾ ثلاث مرّات[٢] أرأيت أعجب من أعمى البصيرة هذا الضالّ المضلّ الذي ينهى عن الصّلاة عبدنا محمّداً صلّى الله عليه وسلّم وحبيبنا . أرأيت إن كان هذا العبد الّذي يصلّي ويركع ويسجد لنا على الهدى وعلى طريقٍ مستقيم ، أو أمر الّذي ينهى عن الصّلاة باتّقاء الله وخوف عقابه[٣] هل ينتهي عجبك من أعمى البصيرة هذا ! أرأيت إن كان هذا النّاهي عن الصّلاة والأمر بتقوى الله تعالى في السّرّ والعلن قد كذّب بالحقّ الّذي بَعَث الله تعالى به محمّداً صلّى الله عليه وسلّم وأدبر عنه فلم يصّدق به[٤] هل لعجبك من مزيد ! ألم يعلم أعمى البصيرة هذا أن الله تعالى يعلم فعله وقوله ونيّته وسيجازيه على كلّ ذلك !

حقاً ، إنّ الأمر ليس كما يظنّ هذا المعاند بأنه ليس ثمة بعث ولا حساب ولا جزاء. لئن لم ينته عن إلحاق الأذى بحبيبنا صلّى الله عليه وسلّم ، لنأخذن بناصيته ومقدّم رأسه[٥] أخذاً شديداً ، ولنجذبنّ شعر مقدّم رأسه جذباً عنيفاً ، ونمرّغنّ أنفه في التّراب ، ولنضعنّ ناصيته الكاذبة الخاطئة في الرَّغام ولنذلّنّه ، ولنهيننّه .

فليدع أعمى البصيرة هذا قومه[٦] وليجمعنّهم ضدّ محمّد صلّى الله عليه وسلّم . سندعو له في المقابل ملائكة العذاب[٧] ، عن ابن عبّاس قال : كان رسول الله صلّى الله عليه وسلّم يصلّي عند المقام فمّر به أبو جهل بن هشام فقال : يا محمّد ، ألم أنهك عن

---

(١) ٢١٦/٦ وفتح الباري ٧٢٤/٨ حديث رقم ٤٩٥٨ .

(٢) انظر الجلالين ومعاني القرآن للفراء٢٧٨/٣ .

(٣) تفسير الطّبري ١٦٤/٣٠ .

(٤) انظر تفسير الطبري . ١٦٤/٣٠

(٥) انظر لسان العرب : " سفع " .

(٦) معاني القرآن للفرّاء ٢٧٩/٣ .

(٧) تفسير ابن كثير ٤٦٠/٨ .

هذا ؟ وتوعّده . فأغلظ له رسول الله صلّى الله عليه وسلّم وانتهره ، فقال : يا محمّد ، بأيّ شيءٍ تهدّدني ؟ أما والله إنّي لأكثر هذا الوادي نادياً ! فأنزل الله : ﴿ فَلْيَدْعُ نَادِيَهُ سَنَدْعُ الزَّبَانِيَةَ ﴾ قال ابن عبّاس : لو دعا ناديه لأخذته ملائكة العذاب من ساعته . وقال التّرمذيّ : حسنٌ صحيح[1] .

كلاّ ، إنّ الأمر ليس كما زعم أبو جهل ذو النّاصية الكاذبة الخاطئة . لا تطعه أيّها الرّسول الكريم والنّبيّ العظيم في نهيه لك عن الصّلاة واسجد لنا واقترب منّا بفعل كلّ ما نحبّ ونرضى عنه . عن أبي هريرة أنّ رسول الله صلّى الله عليه وسلّم قال : أقرب ما يكون العبد من ربّه وهو ساجد ، فأكثروا الدّعاء [2] .

وليس بخافٍ أنّ هذه المجموعة من الآيات الكريمات نزلت في وقتٍ يتأخّر عن وقت نزول الآيات الخمس الكريمات الأُول ، وذلك بعد أن اشتدّ أذى قريشٍ للنّبيّ صلّى الله عليه وسلّم . وفي هذا القسم من السّورة الكريمة إشارةٌ إلى النّاصية .في الآيتين الكريمتين الخامسة عشرة والسّادسة عشرة.وقد وُصِفَتِ النّاصية بأنّها كاذبة وخاطئة تعتمد ارتكاب الخطأ . والمراد ناصية أبي جهل عليه لعنة الله تعالى . وقد لفت انتباه العاملين في حقل الإعجاز العلميّ في القرآن الكريم نسبة الكذب واعتماد ارتكاب الخطأ للنّاصية. وقد تبيّنوا في الحديث عن النّاصية مظهراً من مظاهر إعجاز القرآن الكريم في مجال العلم . إنّ النّاصية هي منطقة أعلى الجبهة من الرّأس ، ومقدّم الرّأس ، والموضع الّذي ينبت فيه الشّعر من مقدّم الرّأس ، وشَعْر ذلك الموضع . وبدراسة العلماء للنّاصية بهذه المعاني والجزء من المخ تحت منطقة أعلى الجبهة أو النّاصية تبيّن العلماء أنّ الإنسان وَحْدَه ينفرد مخُّه بنموٍّ ضخم للفِصِّ الأمامي للمخّ، وأنّ هذا الفِصَّ من المخّ هو العضو الخفيّ المسئول عن شخصيّة الفرد والمتحكّم في تصرّفاته وأفعاله من صدقٍ وكذبٍ وصوابٍ وخطأ . كما تبيّن العلماء أنّه بالهيمنة على هذا العضو الخفيّ يمكن السّيطرة على الشخص نفسه[3] .

---

(١) تفسير ابن كثير ٨/٤٦٠ .

(٢) صحيح مسلم ١/٣٥٠ حديث رقم ٤٨٢ وتفسير ابن كثير ٨/٤٦١ .

(٣) انظر الإعجاز العلّمي في النّاصية ٧-١٢ من مطبوعات هيئة الإعجاز العلمّي في القرآن والسّنة برابطة العالم الإسلامي .

إنّ وصف الآية الكريمة النّاصية بأنّها كاذبةٌ وتعتمد ارتكاب الخطأ لفت انتباه العلماء إلى وجوب دراسة النّاصية وما تحتها من أجزاء المخّ ، وكانت الانتهاء بفضل الله تعالى إلى هذا المظهر من مظاهر إعجاز هذا الكتاب العزيز الّذي لا تنتهي عجائبه إلى يوم الدّين . والحمد لله ربّ العالمين .

هذه المعاني وما في حكمها أوحت بالقصيدة التّالية .